Dm.26938

الجزء الثاني — المجلد الثاني والثلاثون

مجلة
المجمع العلمي العربي

INSTITUT FRANÇAIS D'ARCHÉOLOGIE ORIENTALE DU CAIRE
BIBLIOTHÈQUE

١ نيسان سنة ١٩٥٧ م — ١ رمضان ١٣٧٦ هـ

حول الفصحى والعامية

ان قضية الفصحى والعامية في اللغة العربية ، لهي من القضايا التي تثار من حين الى حين ، منذ عدة عقود من السنين .

يثيرها — على الأكثر — بعض الذين يدعون الى التخلي عن الفصحى ، والتحول عنها الى العامية ، في الكتابة والخطابة والحوار ، ولا سيما في القصص والمسرحيات .

ويستند هؤلاء في دعوتهم هذه الى ملاحظات عديدة ومتنوعة ، أهمها وأعمها — على ما أعتقد — يحوم حول تشبيه العربية باللاتينية .

انهم يقولون : « إن حالة العربية الفصحى الآن ، لا تختلف عن حالة اللاتينية الكلاسيكية قديماً ، فمصيرها سيكون شبيهاً بمصير اللغة المذكورة حتماً . من المعلوم ان اللاتينية ماتت ، بعد أن ولّدت اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية والرومانية .. التي تعرف الآن باسم « اللغات اللاتينية » . وهذه اللغات أصبحت منذ عدة قرون لغات علم وأدب ، بعد أن كانت بمثابة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« لغات عامية » مدة غير قصيرة من الزمن . وأما اللاتينية الأصلية فقد اندثرت وماتت ، بعد أن كانت لغة العلم والأدب في معظم بلاد الغرب ، مدة قرون عديدة . »

« فلا بد أن يحدث مثل ذلك في اللغة العربية أيضاً . فمن العبث أن تبذل الجهود لتأخير هذا المصير . بل من الخير لنا أن نؤمن بذلك من الآن ، فنوجه جهودنا الى جعل « العامية » لغة الكتابة والعلم والأدب ، بوجه عام ... »

إن أمثال هذه الملاحظات تسيطر على أذهان الكثيرين ممن يقولون بوجوب عدم التمسك بالعربية الفصحى ، وهي تظهر من خلال أحاديثهم وكتاباتهم بأشكال وأساليب شتى .

ولهذا السبب ، إني أعتقد بأن بحث قضية الفصحى والعامية يجب أن يبدأ بدرس هذه « الحجة الأساسية » ، يجب علينا أن نلقي نظرة فاحصة الى تاريخ اللغات اللاتينية ، لكي نستطيع أن نحكم - بطريقة علمية سليمة - هل تشبه حالة اللغة العربية الآن حالة اللاتينية قديماً ؟ وهل سيكون مصيرها شبيهاً بمصير اللغة اللاتينية حتماً ؟

لا شك في أن اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية والرومانية .. قد تفرعت من اللغة اللاتينية .

وصحيح أنها كانت - في بادئ الأمر - لغات عامية ، ثم تحولت - تدريجاً - الى لغات علم وأدب راقية .

وصحيح أيضاً ، أن اللاتينية الكلاسيكية ، قد فقدت الحياة ، حيث لم يبق على وجه البسيطة أمة أو شعب يتكلم بها .

هذه كلها من الحقائق الثابتة ، التي لا يمكن لأحد أن ينكرها ، بوجه من الوجوه .

ولكن ... هناك حقائق أخرى ، لا بد من أخذها بنظر الاعتبار في هذا المضمار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان اللغات التي تفرعت عن اللاتينية لم تنحصر باللغات التي ذكرناها آنفاً . بل قد تفرعت عن اللاتينية عشرات اللغات ومئات اللهجات . الا أن معظم هذه اللغات واللهجات لم تعش الى يومنا هذا ، بل تركت محلها الى اللغات اللاتينية المعروفة الآن . فان كل واحدة من اللغات اللاتينية المتداولة الآن ، قد قامت مقام عدد غير قليل من اللغات واللهجات .

ويفهم من ذلك : أن تاريخ تطور اللغات يعرض الى الأنظار نوعين من التطورات : التطور نحو التفرع ، والتطور نحو التوحد . ويسمي الباحثون الطور الأول بـ « طور التجزؤ Morcellement » والطور الثاني بـ « طور التوحد Réunification » .

إن من يحصر نظره حول النوع الأول من التطورات ، فلا ينتبه الى النوع الثاني منها ... يبقى بعيداً عن إدراك الحقائق على وجهها الصحيح ، بعداً كبيراً .

فيجدر بنا أن ندرس صفحات تطور اللغات اللاتينية ، لنطلع على أطوار « التجزؤ » وعواملة من ناحية ، وأطوار « التوحد » وعوامله من ناحية أخرى .

وبهذه الصورة ـ وبهذه الصورة وحدها ـ نستطيع أن نصل الى نتيجة علمية ، في هذه القضية الهامة .

تفرع اللغة اللاتينية

ـ ١ ـ

ان اللاتينية كانت ـ في بادئ الأمر ـ لغة خاصة بمدينة روما وضواحيها المعروفة باسم Latium ، ثم أصبحت لغة ايطاليا بأجمعها ، بسبب توسع حكم الرومان فيها . وبعد ذلك انتشرت الى جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، مع الفتوحات التي تمت في عهد الامبراطورية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان لأهالي تلك البلاد الشاسعة لغات خاصة بهم ، مثل اليونانيـة ، والآرامية ، والعربية ، والقبطية ، والغوتية ، والبربرية ، والفالية ، والايبرية ، والليجورية ، والسلتية ... الخ ...

وعندما دخلت اللاتينية الى تلك البلاد ، مع الجيوش والحكام ، بدأ نوع من التنازع والتفاعل بينها وبين اللغات الدارجة في البلاد المفتوحة . وأما نتائج هذا التفاعل والتنازع ، فقد اختلف باختلاف اللغات والأقطار .

في الشرق ، لم تستطع اللاتينية أن تتغلب على اليونانية ؛ لأن اللغة المذكورة كانت مقترنة بحضارة أرقى من حضارة الرومان ، وبأدب أرفع من الأدب اللاتيني . ولذلك أثرت في اللاتينية أكثر مما تأثرت منها ؛ فحافظت البلاد اليونانية على شخصيتها اللغوية ، على الرغم من خضوعها الى حكم الرومان وسيطرتهم السياسية .

ومن المعلوم أن ذلك كان من جملة العوامل التي أدت الى انشطار الامبراطورية الرومانية الى شطرين : الامبراطورية الشرقية والامبراطورية الغربيـة ، حيث أصبحت اللغة الرسمية « اليونانية » في الشرقية ، وظلت « اللاتينية » في الغربية .

وأما في الغرب ، ـ في البلاد التي تعرف الآن باسم فرنسا واسبانيا وبريطانيا العظمى ـ ، فقد حدث عكس ذلك تماماً : تغلبت اللاتينية على لغات البلاد المفتوحة . لأن تلك اللغات كانت محرومة من أدب مدوّن ومكتوب ، كما انها كانت غير مدعومة بحضارة راقية .

ولكن هذه الغلبة لم تتمّ إلا بعد تفاعل وتنازع استمر نحو خمسة قرون . ومن الطبيعي أن اللاتينية تأثرت خلال هذه المدة الطويلة من خصائص تلك اللغات ، وتغيرت عن أصلها في كثير الأمور .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كانت اللاتينية ترقت كثيراً ، فأصبحت لغة أدب رفيع جداً ، بفضل الخطباء والشعراء والعلماء الذين نبغوا في عهد الامبراطورية الزاهرة ، أمثال تشيتشرون ، وفيرجيل ، ولوكرس ...

ولكن هذه اللاتينية الأدبية ـ اللاتينية الكلاسيكية ـ كانت بمثابة لغة أريستوقراطية ، لا يمارسها ولا يحسنها إلا النخبة الممتازة ، من الحكام والأدباء والمتنورين . إنها لم تتغلغل كثيراً بين طبقات العوام . وظل الناس يتكلمون بلهجات لاتينية بسيطة ، كان الرومان يميزونها عن اللاتينية الكلاسيكية ، ويسمونها بأسماء خاصة ، مثل : كلام العوام ، اللغة الدارجة ، لغة الفلاحين

Sermo vulgaris , lingum rusticum , lingua usualis ,

ان الفتوحات الرومانية ، كانت تنشر اللاتينية الكلاسيكية ، واللاتينية العامية في وقت واحد : الكلاسيكية مع الحكام والمتنورين ، والعامية بواسطة الجنود والتجار ، والفلاحين الذين استوطنوا البلاد المفتوحة ، وصاروا يعيشون ويعملون بين أهاليها الأصليين .

ومن الطبيعي أن اللاتينية الكلاسيكية بقيت ـ خلال هذا الانتشار ـ كما هي : بمفرداتها وقواعدها الصرفية والنحوية المدونة في الكتب . ولكن اللاتينية العامية لم تسلم من التغير والتحول ، لأنها كانت تنتقل وتنتشر عن طريق المشافهة وحدها ، فكان من الطبيعي أن تتأثر ـ خلال هذا الانتشار ـ من خصائص اللغات المحلية القديمة ، ولا سيما من أساليبها الصوتية .

ومما تجب ملاحظته في هذا المضمار ، ان اللغات الدارجة في البلاد المفتوحة التي ذكرناها آنفاً ، كانت كثيرة ومتنوعة ومتشعبة الى عدد كبير من اللهجات . فكان من الطبيعي أن يؤدي تفاعل اللاتينية العامية مع كل واحدة من هذه اللهجات واللغات المحلية ، في تلك الأقاليم المتنوعة ، الى تكوين لغات ولهجات عديدة ، تختلف عن اللاتينية الأصلية ، في كثير من الخصائص .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولهذا السبب ، يرجح الباحثون تسمية هذه اللغات واللهجات الجديدة بال « رومانية » تمييزاً لها عن اللاتينية الأصلية .

- ٢ -

ولكن ... هذه اللغات الرومانية الجديدة ، لم تكد تتغلب على اللغات المحلية ، فتستقر - نوعاً ما - على حالات وأساليب معينة ، حتى تعرضت الى عوامل قوية من التحولات والتغيرات الجديدة : إذ دخلت البلاد المذكورة لغات جرمانية عديدة ، من جراء استيلاء القبائل الجرمانية عليها ، واستيطان عدد غير قليل من القبائل المذكورة في مختلف أقطارها .

ومن الطبيعي ، أن قام عندئذ تفاعل وتنازع بين اللغات واللهجات الجرمانية التي كان يتكلم بها الغزاة والمهاجرون ، وبين اللهجات الرومانية التي كان يتكلم بها أهالي البلاد .

وأما نتائج هذا التنازع الجديد ، فقد اختلفت - هي أيضاً - باختلاف البلاد : ففي بريطانيا العظمى وبريطانيا الصغرى تغلبت اللغات الجرمانية على الرومانية ، وأصبحت تلك البلاد جرمانية اللغة . ولكن في سائر أقاليم فرنسا وفي اسبانيا وايطاليا - بعكس ذلك - تغلبت اللغات الرومانية على الجرمانية ، حيث نسي الفاتحون والمهاجرون - بمرور الزمان وبصورة تدريجية - لغاتهم الأصلية وصاروا هم أيضاً يتكلمون باللغات الرومانية ، مثل أهل البلاد التي فتحوها وهاجروا اليها .

ولكن ذلك لم يتم ، إلا بعد مرور نحو ثلاثة قرون .

ومن الطبيعي أن يكون قد حدث ، خلال هذه المدة ، تفاعل بين لغات الفاتحين وبين لغات البلاد المفتوحة . ولذلك تأثرت اللغات الرومانية بعض التأثر من خصائص اللغات الجرمانية ، فازدادت بذلك تباعداً عن اللاتينية الأصلية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومما يجب أن لا يغرب عن البال في هذا المضمار : ان اللغات الجرمانية التي دخلت مع القبائل الغازية المعلومة ، الى مختلف أقطار البلاد التي تعرف الآن باسم ايطاليا وفرنسا واسبانيا .. كانت متنوعة ومتشعبة في حد ذاتها . فتفاعل هذه اللغات واللهجات الجرمانية المختلفة مع اللغات الدارجة في مختلف أنحاء البلاد المذكورة ، كان من الطبيعي أن يؤدي الى زيادة أنواع اللغات واللهجات المنحدرة من اللاتينية زيادة كبيرة .

* * *

إن غزوات القبائل الجرمانية للبلاد المذكورة أثرت في مصير اللغة اللاتينية ، من وجوه أخرى أيضاً : ان هذه الغزوات أدت الى حدوث تطورات وانقلابات اجتماعية وسياسية هامة . فكان من الطبيعي أن تتأثر اللغات من هذه الانقلابات تأثراً عميقاً .

إذ من المعلوم أن الغزوات الجرمانية أدت ـ في آخر الأمر ـ الى انقراض الامبراطورية الرومانية الغربية وزوالها ، كما انها سببت تقلص الطبقة المتعلمة والمستنيرة ، وتلاشيها بسرعة كبيرة .

ومن الطبيعي أن زوال الوحدة السياسية من جراء سقوط الامبراطورية ، قد حرم اللاتينية الكلاسيكية من السلطة المعنوية التي كانت تتمتع بها ، لكونها لغة الحكم والإدارة في امبراطورية واسعة الأرجاء . كما أن تلاشي الطبقة المستنيرة التي كانت تمارس اللاتينية الأدبية وترعاها ، أدى الى تقلص ظل اللغة المذكورة الى أقصى حدود التقلص ، وجعلها تنحصر بين جدران المعابد والأديرة وحدها .

ولا حاجة للبيان أن انسحاب اللاتينية الأدبية من الميدان ، انسحاباً يكاد يكون تاماً ، على المنوال الذي سردناه آنفاً ، ترك الحبل على غارب اللغات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

العامية ، وأفسح أمامها مجالاً واسعاً للتغير السريع ، والتفرع الذي لا يقف عند حد ، لعدم وجود عائق يعيقه ، وضابط يضبطه .

إن انضمام هذه العوامل الهامة الى عوامل التحول والتفرع التي سردناها قبلاً ، أدى ـ بطبيعة الحال ـ الى زيادة تباعد اللغات واللهجات الرومانية ، عن اللاتينية الأصلية زيادة كبيرة جداً .

في الواقع أن « شارلماني » الشهير ، قد سعى ـ في القرن التاسع للميلاد ـ الى إحياء الامبراطورية ، وتشجيع التعليم . إلاّ أن الامبراطورية ، التي كونها ، لم تعمر طويلاً ، لأنه هو بنفسه قسمها بين أولاده الثلاثة ، وفتح بذلك الباب للتقسيمات المتتالية بين أحفاده العديدين . ومن المعلوم أنه بعد ذلك العهد القصير ، أخذت روابط السلطات المركزية ترتخي بسرعة ، ثم نشأت النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة التي عرفت باسم « الاقطاعية » « الفيوداليته » ، فانقسمت البلاد الى عدد لا يحصى من المقاطعات الصغيرة ، وصارت تحتمي كل واحدة منها بقصر محصّن ، وتتمتع باستقلال فعلي مطلق ، فلا ترتبط بالملكة أو بالامبراطورية إلا بروابط اسمية بحتة ، ثم أخذت الروابط التي تصل هذه المقاطعات بعضها ببعض أيضاً ترتخي فتزول بصورة تدريجية ، الى أن أصبحت كل مقاطعة وكل مدينة منطوية على نفسها ، ومكتفية بذاتها ، ومنعزلة عن غيرها انعزالاً يكاد يكون تاماً .

ومن المعلوم أن في ذلك العهد تفشت الأمية بصورة لم يسبق لها مثيل . فلم يبق من يعرف القراءة والكتابة حتى بين كبار أصحاب المقاطعات وطبقة الحكام والنبلاء . وأصبحت الكتابة والقراءة مما يختص به جماعة من رجال الكنائس وحدهم .

ولا حاجة الى القول : ان كل ذلك أوصل تفرع اللغات واللهجات العامية الى حده الأقصى .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إن العوامل التي ذكرناها الى الآن ، كانت عوامل عامة ، تشمل جميع البلاد التي عرفت باسم « اللاتينية » . ولإتمام سلسلة هذه العوامل المتنوعة ، لا بد لنا من أن نشير الى عامل آخر ، اختص بقسم من تلك البلاد ، دون غيرها . هذا العامل الخاص ، هو تأثير اللغة العربية في اللغة الاسبانية .

من المعلوم أن العرب كانوا استولوا على اسبانيا واستوطنوها . وأسسوا فيها حضارة راقية ، استمرت مدة طويلة ، تقرب من ثمانية قرون . فكان من الطبيعي أن تؤثر اللغة العربية ـ خلال هذه المدة الطويلة ـ في اللغات الاسبانية تأثيراً كبيراً . فاقتبست الاسبانية من اللغة العربية بعض الأصوات التي لم يكن في اللغة اللاتينية ما يماثلها . كما اقتبست آلاف الكلمات العربية التي تختلف عن الكلمات اللاتينية اختلافاً جوهرياً من وجوه عديدة .

ولا حاجة الى البيان ان ذلك أدى الى زيادة الفوارق التي كانت حدثت بين الاسبانية وبين سائر اللغات اللاتينية زيادة كبيرة .

ـ ٣ ـ

هذا ، ولإتمام بحث الأحداث والعوامل التي أثرت في تطور اللغة اللاتينية وتفرعها ، لا بد لنا من أن نلقي نظرة عجلى ، الى عمل الديانة المسيحية في هذا المضمار أيضاً :

لا شك في أن الديانة المسيحية ساعدت على انتشار اللغة اللاتينية في أوروبا الغربية مساعدة كبيرة .

لأن المركز الأوروبي للديانة المذكورة كانت مدينة روما نفسها . انها تنظمت هناك ، وانتشرت من هناك ، كما ان الأناجيل التي تجمعت هناك وانتشرت من هناك الى البلاد الغربية كانت بالنصوص اللاتينية . فكان من الطبيعي ـ والحالة هذه ـ أن ترتبط الديانة المسيحية في تلك البلاد باللغة اللاتينية ارتباطاً وثيقاً ، وأن تساعد على انتشارها مساعدة كبيرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلاّ أن الديانة المسيحية لم تلتزم نشر اللاتينية الكلاسيكية ، بل عملت على نشر اللاتينية العامية . وذلك لأنها انتشرت ـ في بادئ الأمر ـ بين عوام الناس ، دون الخواص . لأن الحكام كانوا يعارضونها أشد المعارضة ، حتى انهم ظلوا يضطهدون معتنقيها بشتى أساليب الاضطهاد ، مدة تزيد على ثلاثة قرون . فكان من الطبيعي أن يخاطب المبشرون الناس باللغة الدارجة بينهم ، لا باللاتينية الأدبية التي كانت شبه غريبة عليهم .

ومما تجب ملاحظته في هذا الشأن ، ان المذهب الكاثوليكي الذي نشأ في ايطاليا ، وانتشر منها الى غرب أوروبا ، كان يلقي مهمة تلاوة الكتاب المقدس على عواتق رجال الدين وحدهم . وما كان يفرض ذلك على سائر الناس بوجه من الوجوه . ولهذا السبب لم تؤثر لغة الانجيل في كلام الناس تأثيراً يذكر ، بل بقيت اللغة المذكورة كلغة خاصة برجال الدين .

حتى ان المجمع الديني الذي انعقد في مدينة « تور » سنة ٨١٤ ، اتخذ قراراً صريحاً في هذا الشأن : فأوصى بـ « تفهيم كلام الله الى الناس ، باللغات التي درجوا عليها » .

ولذلك نستطيع أن نقول : إن الكنيسة المسيحية احتفظت باللاتينية الأدبية لنفسها ، ونشرت بين الناس اللاتينية العامية وحدها .

ومن المعلوم أن فكرة « وجوب تلاوة الانجيل من قبل جميع الأفراد » لم تظهر الى عالم الوجود إلاّ بعد ظهور البروتستانتية ، في القرن السادس عشر للميلاد . ولكن ، حتى ذلك التاريخ ، كانت فروع اللاتينية قد تباعدت عن أصلها كثيراً ، وكوّنت عدة لغات أدبية راقية جداً . كما أن اللغات الجرمانية أيضاً ، كانت خرجت عن أطوار البدائية ، وأنتجت آثاراً أدبية هامة . ولهذا السبب ، نجد أن « فكرة وجوب قراءة الانجيل من قبل جميع الناس » اقترنت بفكرة « ترجمة الانجيل الى اللغات الدارجة بين الناس » وهذه الفكرة استوجبت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ـ على الفور ـ ترجمة الإنجيل الى الألمانية والفرنسية والانجليزية ... ولهذا السبب ، فقدت اللاتينية ـ بعد ظهور البروتستانية ـ الشيء الكثير من مكانتها ، حتى بين رجال الدين أنفسهم .

وخلاصة القول : ان الكنيسة المسيحية « حافظت » على اللاتينية الأدبية ، إذ نشرتها بين رجالها ، ولكنها لم تعمل على نشرها بين الناس ، فتركت بذلك أمام اللغات واللهجات العامية ، مجالاً واسعاً للتنوع والتفرع والانتشار .

* * *

يتبين من كل ما سبق : أن سلسلة طويلة ومعقدة من الأحداث والعوامل التاريخية ـ السياسية والاجتماعية والفكرية ـ تضافرت على تفريع اللغة اللاتينية الى فروع كثيرة ، وأدت الى تباعد هذه الفروع بعضها عن بعض من ناحية ، وعن اللاتينية الأصلية من ناحية أخرى .

وخلال هذه الأحداث ـ التي بدأت قبل الميلاد ، واستمرت حتى القرن الثاني عشر للميلاد ـ تغايرت وتخالفت اللغات الرومانية التي تكونت على أراضي كل من فرنسا وايطاليا واسبانيا ، كما أنها تشعبت الى عدد كبير من اللهجات .

وهذه اللغات واللهجات وصلت الى أقصى حدود التعدد والتنوع خلال القرون الوسطى ، من جراء تأسس النظم الاقطاعية في مختلف أنحاء البلاد ، وتفشي الأمية بين الخواص فضلاً عن العوام ، وتضاؤل الاتصال بين مختلف المقاطعات ، وانطواء المدن على نفسها حول القصور المحصنة التي شيدت في كل الجهات ...

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تكوّن اللغة الفرنسية

ولكن ... بعد عهود التفرع والتجزؤ التي استمرت بهذه الصورة مدة تزيد على عشرة قرون ، حدثت أحداث سياسية واجتماعية وفكرية أخرى ، عملت عكس ما عملته الأحداث السالفة ، فأدت الى « توحّد » اللغات واللهجات ، حول مراكز عديدة ، بصورة تدريجية .

إني لا أرى لزوماً الى تتبع « تيارات التوحد » التي أخذت ترتسم في جميع البلاد اللاتينية ، بعد أدوار التجزؤ التي استعرضتها وشرحتها آنفاً . بل سأكتفي بذكر ما حدث في فرنسا وحدها . وذلك لأن اللغة الفرنسية معلومة في البلاد العربية أكثر من سائر اللغات اللاتينية . كما أنها أشد اللغات الرومانية تباعداً عن اللاتينية الأصلية . فأعتقد لذلك ، أن « الأحداث والعوامل الموحِّدة » التي سنلاحظها من تاريخ تكوّن اللغة الفرنسية وتطورها ستغنينا عن تتبع ما حدث في سائر اللغات الرومانية ، بالنسبة الى الغاية التي نرمي اليها من بحثنا هذا .

— ١ —

يجمع علماء اللغة اللهجات الرومانية التي نشأت فوق أراضي فرنسا الحالية ، في صنفين أساسيين : اللهجات الشمالية واللهجات الجنوبية ؛ ويسمون الأولى باسم « لهجات الأويل » والثانية باسم « لهجات الأوك » ، وذلك بالنسبة الى الكلمة التي تستعمل في كل منها مقابل كلمة « نعم » العربية : « اويل » في الشمال ، و « اوك » في الجنوب .

اللغة الفرنسية تمثل أرقى الدرجات التي وصلت اليها لهجات الأويل ، والبروفنسية تمثل أرقى لهجات الأوك . والفرق بين الاثنتين كبير جداً ، إذ يقول العالم اللغوي المشهور « ميه » انه يعادل الفرق الموجود بين اللغة الاسبانية وبين اللغة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الايطالية . وطبيعي ان هذا الفرق الكبير لا يترك مجالاً للتخاطب والتفاهم بين أصحاب اللغتين دون دراسة خاصة أو وساطة ترجمان .

وأما سبب حدوث هذا الاختلاف الكبير ، فيعود الى الاختلاف في « نسبة تأثير » كل من اللاتينية والجرمانية في شمال فرنسا وجنوبها .

فان أقاليم فرنسا الجنوبية كانت قد تأثرت من اللاتينية أكثر من تأثر الأقاليم الشمالية بها .

لأنها كانت تَرَوْمَنَتْ وتلتّنت قبل الأقاليم الشمالية ، كما أن صلاتها بروما وبالرومان ظلت على الدوام أشد وأوثق من صلات الأقاليم الشمالية بها .

وبعكس ذلك ، ان تأثر الأقاليم الجنوبية باللغات الجرمانية ، كان أضعف من تأثر الأقاليم الشمالية بها . لأن القبائل الجرمانية التي استولت على فرنسا واستوطنتها كانت أكثر كثافة في الأقاليم الشمالية منها في الأقاليم الجنوبية .

ولهذه الأسباب اختلفت اللغة الفرنسية التي نشأت في شمال فرنسا عن البروفنسية التي نشأت في جنوبها اختلافاً كبيراً ، كما أنها تباعدت عن اللاتينية الأصلية ، أكثر من تباعد البروفنسية بوجه خاص ، ومن تباعد سائر اللغات الرومانية بوجه عام .

* * *

ان اللهجة التي انحدرت منها اللغة الفرنسية كانت في بادئ الأمر لهجة خاصة بالمنطقة التي تحيط بمدينة باريس الحاليـة ، والتي تعرف باسم « جزيرة فرنسا Ile de France » ويسمي الباحثون هذه اللهجة باسم الـ Francien تمييزاً لها عن الـ Français التي تكوّنت فيما بعد ، نتيجة تطورات عديدة .

ومن المعلوم أن المنطقة المذكورة صارت مهداً للأسرة التي أسست المملكة الفرنسية . ولذلك اكتسبت لهجتها مكانة سياسية وأدبية خاصة ، فأخذت تتغلب على اللهجات الأخرى تبعاً لتوسع نطاق حكم الأسرة المذكورة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد جرى هذا التوسع بصورة تدريجية : فان المقاطعات المختلفة صارت تنضم الى « مملكة فرنسا » الواحدة بعد الأخرى ، تارة عن طريق الحرب والفتح ، وطوراً عن طريق الصداق والميراث ، وذلك من جراء زواج ملوك فرنسا وأمرائها بأميرات المقاطعات المختلفة . وكلما دخلت مقاطعة من المقاطعات تحت حكم المملكة الفرنسية كانت تدخل في الوقت نفسه تحت تأثير اللغة الفرنسية . وكانت اللغة المذكورة تتغلب بهذه الصورة على اللهجات المحلية ، أولاً في المدن ، ثم في القرى والأرياف المحيطة بها ، بصورة تدريجية .

إن تغلب وانتشار الفرنسية ، قد تمّ بسهولة نسبية في مناطق لغات الاويل ، ولكنه تأخر كثيراً في مناطق لغات الاوك .

وذلك لأن « التوحد الإداري والسياسي » في الأقسام الشمالية من فرنسا ـ وعلى وجه التحديد : في الايالات التي تقع شمال نهر اللوار ـ قد سبق توحد سائر أقسامها مدة قرون عديدة . فان ايالات بروفنس الجنوبية لم تنضم الى مملكة فرنسا إلا في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد . ومن الطبيعي أن بقاء تلك الايالات خارج حكم المملكة الفرنسية أدى الى بقاء لغاتها مصونة من سيطرة اللغة الفرنسية مدة طويلة .

وفضلاً عن ذلك ، فان الفرنسية كانت من جملة لغات الاويل ، وشديدة القرابة بها . وذلك كان يسهل على الناس تعلمها ، وتحولهم عن لهجاتهم الأصلية اليها .

في حين أن سكان المناطق الجنوبية ما كان يمكن أن يتعلموا الفرنسية ، ويتحولوا من لغاتهم الأصلية اليها ، إلا ببذل جهود كبيرة ، لبعد لهجاتهم عن الفرنسية .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن الغريب أن اللغة البروفنسية قد نمت وازدهرت قبل ازدهار الفرنسية ، والأدب البروفنسي اشتهر قبل اشتهار الأدب الفرنسي ، لأن الفنانين الذين عرفوا باسم الـ « تروبادور » كانوا ينظمون أشعارهم ويلحنونها ، ويغنونها ، باللغة البروفنسية .

ولكن حرمان تلك البلاد من حكومة مركزية قوية ، ولا سيما تعرضها الى الحروب الدينية الدموية كان من العوامل التي حالت دون استمرار هذا الازدهار .

إذ من المعلوم أن مذهباً جديداً كان قد انتشر في جنوب فرنسا ، وصار سبباً لاختلاف الناس في أمره اختلافاً عنيفاً . وقد اعتبر البابا هذا المذهب الجديد من البدع التي تجب محاربتها ، فأعلن على أصحابها حرباً صليبية خاصة ، عرفت باسم « صليبية الآلبيجوا » . والحروب الدينية التي نجمت عن ذلك صارت سبباً لإفناء جماعات كبيرة من السكان ولتدمير عدد غير قليل من المدن والقرى ، وأشاعت الفاقة والفوضى في كل الجهات .

وبطبيعة الحال ، تأثر الأدب في هذه الحروب الأهلية والفوضى الكلية ، تأثراً شديداً ، فانقطع عن النمو والازدهار .

وفضلاً عن ذلك ، فقد انتهت سلسلة تلك الأحداث ، الى انضمام البلاد الى مملكة فرنسا : وكان ذلك سنة ١٤٨١ .

ومنذ ذلك التاريخ دخلت البروفانس أيضاً تحت سيطرة اللغة الفرنسية ، وأخذت اللغة الفرنسية تنتشر هناك أيضاً .

- ٢ -

وخلال هذه القرون العديدة ، كانت الفرنسية خرجت من طور « اللغة العامية » وتحولت الى لغة كتابة وأدب .

ثم أخذ هذا الأدب يزدهر بعد بدء عصر النهضة والانبعاث . ولا سيما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد ، حيث نشأ ونبغ طائفة من الأدباء العظام ، الذين كتبوا وألفوا بها مجموعة كبيرة من الآثار الخالدة .

وغني عن البيان ان اللغة الفرنسية اكتسبت من هذه الآثار الأدبية مكانة معنوية سامية انضمت الى مكانتها السياسية ، فزادتها تأثيراً وسلطة على كلام الناس .

ولذلك صارت الفرنسية الأدبية ، تتغلغل بين مختلف طبقات الناس وتطارد اللهجات العامية ، فتحتل مكانها ، الواحدة بعد الأخرى ، أولاً في المدن ، ثم في الأرياف .

* * *

ولكن ، يجب أن لا يذهب بنا الظن إلى أن نتوهم أنه عند قيام هذا الأدب الراقي ، اندثرت جميع اللهجات الرومانية وغير الرومانية التي كانت دارجة في مختلف أنحاء البلاد الفرنسية ، فلم يبق في فرنسا أي فارق بين لغة الكتابة ولغة الكلام .

إذ من المؤكد ـ بعكس ذلك ـ انه في عصر الأدب الكلاسيكي الزاهر ، وفي خلال القرن الثامن عشر ، كان معظم الفرنسيين يرطنون لهجات كثيرة ، تختلف عن اللغة الأدبية بخصائص عديدة .

حتى ان قضية اللغات واللهجات استرعت اهتمام رجال الثورة العظمى ، في أواخر القرن الثامن عشر ، وحملتهم على التفكير بها تفكيراً جدياً ، انتهى بهم الى اتخاذ تدابير عديدة لمعالجة مشكلتها معالجة مثمرة .

كان الراهب غريغوار قدم الى مجلس الثورة سنة ١٧٩٠ تقريراً مسهباً عن حالة اللغة الفرنسية ، وكان مما قاله في التقرير المذكور :

« اننا نستطيع أن نؤكد ـ دون مغالاة ـ بأن نحو ستة ملايين من الفرنسيين ـ ولا سيما في الأرياف ـ لا يعرفون شيئاً عن اللغة القومية . وعدداً لا يقل عن ذلك ـ إذا عرفوا شيئاً منها ـ فإنهم لا يستطيعون أن يواصلوا التحدث بها » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا ، ولكي نقدر دلالة هذه الأرقام حق قدرها ، يجب أن نلاحظ أن مجموع سكان فرنسا في ذلك التاريخ ، كان نحو خمسة وعشرين مليوناً على أكثر تقدير . ويفهم من ذلك : ان نصف سكان فرنسا ما كانوا يتكلمون بالفرنسية .

وفضلاً عن ذلك ، فقد أضاف التقرير الى ما سبق وذكرناه العبارات التالية :

« والذين يحسنون التكلم بها بفصاحة لا يتجاوزون الثلاثة ملايين . وأما الذين يستطيعون كتابتها على وجه الصحة ، فهم أقل من ذلك أيضاً » .

ان الراهب غريغوار ـ مثل سائر رجال الثورة ـ رأى أن هذه الحالة لا يجوز أن تدوم :

« لأن مبدأ المساواة الذي أقرته الثورة يقضي بفتح أبواب التوظف أمام جميع المواطنين . ولكن تسليم زمام الإدارة الى أشخاص لا يحسنون اللغة القومية ، يؤدي الى محاذير كبيرة . وأما ترك هؤلاء خارج ميادين الحكم والإدارة ، فيخالف مبدأ المساواة . فيترتب على الثورة ـ والحالة هذه ـ أن تعالج هذه المشكلة معالجة جدية ، وذلك بمحاربة اللهجات المحلية ، ونشر اللغة الافرنسية الفصيحة بين جميع المواطنين . »

وفضلاً عن ذلك ، فقد رأى جماعة من رجال الثورة ـ وعلى رأسهم تاليران ـ أن اللهجات واللغات المحلية انما هي من مخلفات عهود الانحلال والإقطاع ، فقالوا بوجوب محاربتها من هذه الوجهة أيضاً .

من المعلوم ان الايالات المختلفة في فرنسا ، كانت تتمتع ـ حتى عهد الثورة العظمى ـ بامتيازات كثيرة ومتنوعة ، وذلك حسب الظروف الخاصة التي كانت أحاطت بانضمام كل واحدة منها الى المملكة الفرنسية ، في تواريخ مختلفة .

فقد رأى رجال الثورة ضرورة إزالة هذه الامتيازات ، لإتمام وحدة البلاد . فاجتمع ممثلو الايالات سنة ١٧٩٠ ـ ، وأعلنوا تنازلهم عن جميع الحقوق والامتيازات الباقية من نظم الاقطاع البائدة ، وسارع رجال الثورة إلى تغيير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التقسيمات الإدارية تغييراً جوهرياً ، وتنسيقها وفق أسس جديدة تماماً ، لكي يزيلوا معالم الاقطاعيات السابقة من خريطة البلاد .

وكانت اللهجات في نظر رجال الثورة ، من جملة مخلفات الاقطاع ، فكان من الواجب القضاء عليها أيضاً .

ولكن اللهجات لا يمكن أن تزال في حملة واحدة ، بقرارات تتخذها الحكومة ، أو ببيانات تصدرها المجالس التمثيلية ، مثل التي ألغت الامتيازات المحلية وغيرت التقسيمات الإدارية . بل ان زوال اللهجات ، يتطلب عملاً متواصلاً ، يستمر عدة أجيال . ولذلك دعا مجلس الثورة جميع الناس الى الاهتمام بهذا الأمر . وذلك ببيان أصدره بتاريخ ١٥ شهر المراعي (بربريال) من السنة الثانية من تقويم الثورة .

فقد جاء في البيان المذكور ما يلي :

« أيها المواطنون ،

فليدفع كلاً منكم تسابقٌ مقدس للقضاء على اللهجات في جميع أقطار فرنسا » لأن « تلك اللهجات إنما هي من بقايا عهود الاقطاع والاستعباد » .

* * *

كانت اللغة الفرنسية الخالصة تنتشر في مختلف أنحاء فرنسا ، وتطارد اللهجات المحلية الدارجة فيها ... ـ حتى التاريخ المذكور ـ بحكم الأحداث والظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ... دون أن يكون هناك خطة مرسومة وسياسة مقررة ، لتسريع هذا الانتشار وتسهيل تلك المطاردة .

ولكن بعد الثورة الكبرى ، ـ وعقب صدور البيان الآنف الذكر ـ أخذت الدوائر الحكومية والهيئات العلمية ، تبذل شتى الجهود لنشر اللغة الفصحى ، وتغليبها على اللهجات العامية ، وفق خطط مرسومة وبوسائل مقصودة . ولذلك صارت الأمور المذكورة تجري بسرعة كبيرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عندما أقرت الثورة مبدأ « التعليم الالزامي العام » ، رأى رجال الفكر أن تكون مكافحة اللهجات المحلية والعامية من جملة أهداف التعليم بوجه عام .

وعندما قرروا مبدأ « الخدمة العسكرية العامة » رأوا أن تقوم « الحياة العسكرية في الثكنات وفي خدمة العَلَم » بعمل متمم ومكمل لعمل المدارس في هذا المضمار .

وتلت ذلك سلسلة أحداث وأعمال خدمت الغاية نفسها ، وساعدت على نشر اللغة الفصحى ، ورفع لغة الكلام الى مستوى لغة الكتابة ، بين جميع الطبقات .

إن تقدم وسائل النقل والمواصلة ، وتغلغلها في جميع أنحاء البلاد ، ونفوذها الى أنأى القرى والجبال ... وتطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية تطوراً يزيد في اختلاط الناس بعضهم ببعض ويقضي على حياة الانعزال من جميع الجهات ... وازدهار الصحافة وانتشارها ... ونشاط التشكيلات والتأسيسات التي تهدف الى تعليم الراشدين وتثقيفهم ... والاجتماعات الانتخابية ، وأعمال المجالس التمثيلية المحلية والهيئات النقابية ... والمهرجانات الأدبية والتاريخية ... كلها كانت من جملة العوامل التي أثرت في انتشار الفصاحة تأثيراً كبيراً .

وغني عن البيان أن السينما والإذاعة .. انضمت الى العوامل المذكورة أخيراً ، وصارت تساعد على تعميم اللغة الفصحى مساعدة كبيرة .

* * *

فاذا قيل لنا الآن : « لا فرق بين لغة الكلام ولغة الكتابة في فرنسا » وجب أن نعلم العلم اليقين بأن ذلك إنما تم بفضل الأحداث التي توالت منذ مدة تزيد على ثمانية قرون ، ولا سيما بفضل الجهود الجدية التي بذلت ـ ولا تزال تبذل ـ ، والتدابير الفعالة التي اتخذت ـ ولا تزال تتخذ ـ ، منذ بدء حملة الثورة الكبرى على اللهجات العامية .

ومع هذا كله ، يجب أن نلاحظ بأن القول بأنه « لا يوجد في فرنسا فرق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بين لغة الكتابة ولغة الكلام» لا يخلو من المغالاة ، فان ذلك ، إذا كان صحيحاً بالنسبة الى معظم المدن والقصبات الكبيرة ، فانه بعيد عن الصحة بالنسبة الى كثير من القرى في بعض الايالات .

فانه من الثابت بأن هناك ملايين من الفرنسيين لا يزالون في طور «ثنائية اللغة» ، فانهم يتكلمون في بيوتهم ، ولا سيما مع العجائز والجدات ، بلهجات عامية ولغات خاصة ، وإن كانوا يتقنون الفرنسية الفصحى ، ويتكلمون بها خلال اتصالاتهم الخارجية .

فاللهجات العامية في فرنسا لم تندثر تماماً ، وان كانت قد تضاءلت كثيراً ، فأرى أن أشير هنا الى بعض الأمثلة التي صادفتها خلال مراجعة مصادر بحثي هذا :

فان هناك جماعات تقول J'avons عوضاً عن J'ai ، وذلك قياساً على قولهم nous avons .

ومن يقول il ta té في مقام il a été .

ومن يلفظ كلمة الـ rouge على شكل rouche .

ومن يقول remettez - vous في مقام asseyez - vous .

ومن يسمي الحديقة courtile عوضاً عن jardin .

ومن يقول J'espère tel بمعنى J'attends tel ...

كل هذا ، على الرغم من جميع الأحداث والعوامل التي ذكرناها آنفاً ، وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلت منذ أجيال عديدة .

* * *

ويتبين من كل ما سبق :

ان رجال الفكر والسياسة في فرنسا لم يقولوا : فلندع الناس يتكلمون باللهجات التي ألفوها ، بل قالوا : يجب أن نقضي على هذه اللهجات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ورجال القلم والأدب لم يقولوا : فلنكتبْ باللهجات الدارجة بين الناس ؛ بل قالوا : لِنَسْعَ الى رفع لغة الحوار والكلام الى مستوى لغة الكتابة والأدب ...

وإلاّ ... لما تقدمت اللغة الفرنسية تقدمها المعلوم ،

ولا كتبت الآثار الكلاسيكية الخالدة ...

ولا ظهر الى عالم الوجود شيء من الأدب المعاصر الزاهر ...

الفوارق الأساسية

بين تاريخ اللاتينية وتاريخ العربية

— ١ —

بعد ما استعرضت وشرحت الأحداث والعوامل التي تضافرت على تفريع اللغة اللاتينية الى فروع كبيرة ، وعلى تبعيد هذه الفروع بعضها عن بعضها من ناحية ، وعن اللاتينية الأصلية من ناحية أخرى ...

أعتقد بأن القراء قد أدركوا على الفور الفوارق العظيمة التي ميّزت تاريخ اللغة العربية عن تاريخ اللغات اللاتينية ، من وجهة هذه العوامل والأحداث :

ا — فان اللغة العربية بعد أن استقرت في العالم العربي الحالي ... لم تتعرض الى هجمات وغزوات لغات جديدة ، كما تعرضت اليها اللغات الرومانية ، من جراء استيلاء القبائل الجرمانية واستيطانها مختلف أنحاء البلاد .

ب — ان البلاد العربية لم تبتل بتفتت سياسي واداري واقتصادي ، مثل الذي ابتليت به البلاد الرومانية في عصور الاقطاع الطويلة .

ج — ان الأمية المطلقة لم تتفش في البلاد العربية في وقت من الأوقات ، بقدر ما تفشت في العالم الغربي خلال العصور الآنفة الذكر .

د — ان البلاد العربية لم ينعزل بعضها عن بعض انعزالاً يشبه الانعزال الذي حصل في البلاد الرومانية . بل ظل الاتصال بين مختلف أقطارها قائماً ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بفضل القوافل التجارية التي لم تنقطع عن الازدهار من ناحية ، وقوافل الحج التي ظلت تنقل جماعات كبيرة من المسلمين كل سنة ، من مختلف أنحاء البلاد الى الحجاز من ناحية أخرى .

هـ — ان الديانة الاسلامية التزمت العربية الفصحى التزاماً تاماً ، وظلت تساندها وتؤازرها دون انقطاع ، ولم تتخل عنها للهجة من اللهجات ، في وقت من الأوقات .

* * *

ولهذه الأسباب الأساسية كلها ، اختلف مصير اللغة العربية عن مصير اللاتينية اختلافاً كلياً .

فان الأحداث والعوامل التي ذكرناها آنفاً قد تضافرت على إدامة حياة اللغة العربية ، في حين أن العوامل التي أحاطت باللغة اللاتينية انتهت الى إقصائها عن ميدان الاستعمال ، وجعلتها تنتقل الى عالم الأموات ، بعد أن أنجبت « اللغات اللاتينية » المعلومة الآن .

— ٢ —

ولإزالة جميع الشكوك التي قد تساور بعض الأذهان ، أرى من المفيد أن أوضح أهم الفوارق التي ذكرتها آنفاً ، بشيء من التفصيل :

* * *

ا — لقد قلت : ان اللغة العربية — بعد ان استقرت في العالم العربي الحالي — لم تتعرض الى غزوات أخرى ، كالتي تعرضت اليها اللغات الرومانية ، من جراء استيلاء القبائل الجرمانية ، واستيطانهم في مختلف أنحاء البلاد .

في الواقع ان عدة أسر مالكة غير عربية استولت على زمام الحكم في مختلف البلاد العربية ، في تواريخ مختلفة . الا أن حكم تلك الأسر المالكة لم يتم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بفضل جماعات كبيرة من بني قومهم ، ولم تترافق باستيطان عدد كبير من تلك الجماعات ، ولذلك لم تلبث تلك الأسر المالكة أن استعربت ، فتبنت لغة البلاد .

ولم يشذ عما قلناه آنفاً إلا أسرة مالكة واحدة ، هي أسرة بني عثمان . فانها لم تستعرب مثل سائر الأسر المالكة ، لأن عاصمة ملكها كانت ـ وظلت ـ خارج البلاد العربية . ونستطيع أن نقول : إنها حكمت البلاد العربية ـ وظلت تحكمها ـ من الخارج ، عن بعد منها . وفضلاً عن ذلك ، فان لغتها كانت ضعيفة جداً بالنسبة الى اللغة العربية ، ولهذا السبب تأثرت منها ، أكثر بكثير مما أثرت فيها . فتأثير لغة بني عثمان في اللغة العربية ظل محدوداً ، على الرغم من استمرار حكمها مدة تقرب من أربعة قرون .

ولا نغالي إذا قلنا : إن تأثيرها الأسامي لم يتجاوز كثيراً أمر تأخير نهضة الأدب ، من جراء عدم وجود دولة عربية تشجع الأدب العربي ، وتهيء له وسائل التقدم والنهوض .

* * *

ب ـ وقلت : ان البلاد العربية لم تبتل بتشتت وتفتت يماثل أو يقارب ما ابتليت به البلاد الغربية خلال العهود والاقطاعية .

في الواقع ان البلاد العربية أيضاً فقدت « الوحدة السياسية » ، وانقسمت الى دول ودويلات عديدة ، إلا أن عدد هذه الدول والدويلات ظل محدوداً . ولم يصل الانقسام السياسي في العالم العربي ـ حتى في أسوأ عهود « ملوك الطوائف » ولو من بعيد ـ الى درجة التفتت التام الذي حدث في العالم الغربي ، حيث أصبحت كل مقاطعة ـ وكل مدينة تقريباً ـ مستقلة ومنطوية على نفسها .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ج – وقلت : ان الديانة الإسلامية التزمت العربية الفصحى كل الالتزام ، ولم تتخلّ عنها للهجة من اللهجات العامية ، في يوم من الأيام .

وذلك لأنها لم تعهد بمهمة تلاوة القرآن الى أئمة المساجد وخطباء الجوامع وحدهم – كما فعلته الديانة المسيحية في العالم الروماني – ، بل فرضت ذلك على كل مسلم ومسلمة . فصار لزاماً على كل فرد أن يتلو طائفة من الآيات القرآنية ، كل يوم ، خلال الصلوات الخمس .

حتى خلال الصلوات التي تؤدى بالجماعة ، يترتب على كل فرد مؤتم بأحد المصلين ، أن يستمع الى ما يتلوه الإمام جهراً من ناحية ، وأن يتلو – بعد ذلك – هو بنفسه سراً آيات أخرى من ناحية ثانية .

إن هذه الأحكام الدينية استوجبت إنشاء مدارس وكتاتيب كثيرة لتعليم القرآن – قراءة وحفظاً – الى جميع الأطفال . وهذه المدارس والكتاتيب عمت جميع أنحاء البلاد ، ولم تنقطع عن العمل ، حتى في أسوأ عصور الانحطاط .

وكل ذلك ، حال دون انقطاع صلة العرب بالعربية الفصحى ، بل ظل يذكرهم بها ، ويوصلهم اليها ، على الدوام ، عن طريق السماع المستمر ، والتلاوة المتتالية .

ونستطيع أن نقول : ان فكرة « التعليم العام » التي ظهرت في العالم الغربي مع ظهور البروتستانتية في القرن السادس عشر للميلاد ، كانت قد تولدت في العالم العربي منذ ظهور الإسلام . وصارت تنفذ فيه بصورة فعلية وبمقياس واسع ، منذ القرن الأول للهجرة .

ولذلك عمّ تعليم القرآن في جميع الجهات بسرعة كبيرة .

ومن المعلوم أن لغة القرآن ، هي اللغة العربية الفصحى .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومما تجب ملاحظته في هذا المضمار أن الكنائس المسيحية في البلاد العربية ، هي أيضاً انتهت الى التزام العربية الفصحى ، فان الكنائس الشرقية جعلت العربية لغة الصلوات والمواعظ منذ قرون عديدة . كما ان البروتستان أيضاً اعتمدوا ترجمة الانجيل الى اللغة العربية . والكنيسة الارثوذكسية كذلك ، جعلت العربية لغة الطقوس والصلوات والمواعظ ، بعد أن تخلصت من ربقة اليونانية .

ولهذه الأسباب العديدة ظل اتصال العرب باللغة الفصحى اتصالاً وثيقاً ، فلم يترك مجالاً لتباعد لغة الكلام عن لغة الكتابة تباعداً كبيراً .

والفوارق بين لغة الكلام ولغة الكتابة ـ بين العامية والفصحى ـ ، لم تتعد قط حدود فوارق اللهجات ، التي لا تحول دون تفاهم أصحابها ، بشيء يسير من الجهد والانتباه .

واذا كان الناس ، لا يتكلمون الآن بالعربية الفصحى ، فانهم لا يعجزون عن فهمها ، ولو كانوا أميين .

فضلاً عن ذلك ، اننا نلاحظ ان اللغة الفصحى صارت تزداد تأثيراً وتغلباً على اللهجات العامية شيئاً فشيئاً ، منذ بدء النهضات الفكرية والقومية في مختلف الأقطار العربية . حتى ان التقدم في هذا المضمار أصبح يظهر الى العيان ـ ويلمس لمس اليدين ـ حتى خلال عقد واحد من السنين . وهذا على الرغم من عدم وجود خطة موضوعة لمكافحة العامية ونشر الفصحى بصورة منتظمة فعالة .

إن اللغة الفصحى ، هي الآن لغة القراءة والكتابة والدرس ، في جميع المدارس والمعاهد العربية ، التي صارت تعد بعشرات الآلاف والتي تجمع كل يوم عدة ملايين من التلاميذ والطلاب .

والجرائد اليوميه تصدر ـ في جميع الأقطار العربية ـ باللغة الفصحى . ومن المعلوم أنها تطبع كل يوم مئات الآلاف من النسخ ، تتداولها أيدي الملايين من القراء ، من مختلف الطبقات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلا يجوز ـ والحالة هذه ـ تشبيه العربية الفصحى باللاتينية ، بوجه من الوجوه .

انها استطاعت أن تتغلب الى الآن على جميع عوامل البلبلة التي تألبت عليها خلال عصور الانحطاط الطويلة . فلم تفقد نسغ الحياة ، حتى في عهود حكم الأجنبي القاسي ، وعصور الاستعمار الخانق .

فلا يمكن أن تفقد حيويتها بعد الآن ، فيخطيء من يظن أنها ستنقطع عن النمو والازدهار في عصور النهضة وعهود الاستقلال ، و ... لا سيما .. بعد بزوغ فجر الاتحاد .

انها لا تزال حية ونامية ، ولا شك في أنها ستزداد نمواً في مستقبل الأيام ، وستصبح أشد حيوية مما هي الآن ....

ساطع الحصري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net